تعايش من دون استعمار

عمر برغوثي

ترجمة: س. إ.

تقديم

ما إنْ ظنَّت إسرائيل أنَّ الحلَّ القائم على دولتَيْن فلسطينيَّة وإسرائيليَّة قد نَضَجَ أخيرًا حتى جاءت الانتفاضةُ الفلسطينيَّةُ الثانية لتُذكِّر إسرائيلَ والعالمَ أنَّ الفلسطينيِّين لا يَنْسون ولا يسامحون ـ بل الحق أنَّهم لا يستطيعون أن يَنْسَوْا ولا أن يسامحوا ـ ولادةَ إسرائيل بالخطيئة دولةً كولونياليَّةً، ولا أن يَنْسَوا أو يسامحوا طبيعتَها الإقصائيَّةَ العِرْقيَّةَ التي تؤبِّد استعماريَّتَها في داخلها.

فجأةً، استحال الأمرُ «المقدَّس» القائلُ بأنَّ الاحتلال دام «٣٤» عامًا فقط أمرًا كاذبًا وخادعًا، بل وبائدًا caduc أيضًا. وبدلاً من ذلك فَرَضَ رقمُ «١٩٤٨» الطاغي الحضور نفسَه على مُجْمل الخطاب السياسيّ، وباتَ الاستعمارُ لا يعني احتلالَ الضفَّة الغربيَّة وقطاع غزة وحدهما. وراح الإسرائيليُّون على امتداد ألوان الطيف السياسيّ يَهْذرون «إنَّه الخطر الوجوديّ!،» محرِّكين بذلك ما أسماه الحاخام مايرْ شيلر[١] «علمَ الضحايا» victimology الرَّاسخَ الجذورِ والمُحْتَكَرَ الدَّورِ. وتفسِّر البروفسور تانيا رينهارت من جامعة تل أبيب «لِمَ كان الحديثُ عن عام ١٩٤٨ متداولاً في حينه» بالقول إنَّ «الصورة المنحرفة التي شكَّلها الإسرائيليُّون عن أنفسهم، وقادتُها دعايةٌ هائلةٌ، هي أنَّهم هم المحاصَرون، وهم المقاتِلون من أجل استقلالهم، وهم المهدَّدون من قِبل الإمبراطوريَّة الفلسطينيَّة والعالمِ العربيّ بأسره، تمامًا مثلَ ما كان عليه الأمرُ عام ١٩٤٨.»[٢]

هذا التذكُّر «غيرُ المرحَّبِ به» لعام ١٩٤٨ يُلقيه الباحثُ الإسرائيليُّ ميرون بنڤينستي على عاتق المؤسَّسة الإسرائيليَّة لسعيها الملتبس، أيامَ حكم باراك، إلى كسبِ تماسُكٍ داخليٍّ يَصْعب منالُهُ يومًا بعد يومًا، قائلاً:

«لقد وَجَدت المؤسَّسةُ الإسرائيليَّةُ علَّةً جديدةً لوجودها: وهي تشجيعُ المقاتلين المدلَّلين الذين خاضوا 'المعركة الأخيرة' [عامَ ١٩٤٨]، وتزييتُ مِحْورِ 'الخطر الذي يهدِّد وجود إسرائيل'! إنَّ الإغراءَ المتمثِّل في محوِ نصف قرنٍ بأكمله هو من القوَّة بحيث خَضَعَتْ له الحكومةُ الإسرائيليَّةُ نفسُها، وراحت تَعْمل على تعزيز الإحساس بأنَّ ما يَحْدث الآن قد سَبَقَتْ رؤيتُه من قبلُ déjà-vu...»[٣]

غير أنَّ مؤيِّدةً صريحةً لآرييل شارون، جاءَتْ إلى إسرائيل قبل عشرة أعوام فقط قادمةً من الاتِّحاد السوفياتيّ (سابقًا)، كانتْ ربما أكثرَ تمثيلاً للمزاج الإسرائيليّ العامّ كما تَعْكسه وسائلُ الإعلام. فقد عبَّرتْ عن «خوفها» بالقول: «إنَّ البلاد على شفير الامِّحاق! إنَّنا نحتاج إلى مَنْ يُنقذ البلاد، إلى مَنْ يقول لنا إنَّ اتفاقيَّات أوسلو عمليَّةٌ انتحاريَّةٌ. علينا أن نتوقَّف عن إعطاء الأراضي للفلسطينيِّين، لأنَّه كلَّما أعطيناهم أكثرَ ازدادتْ شهيَّتُهم. انظروا إلى الخارطة! إنَّ إسرائيل مطوَّقةٌ ببحرٍ من العرب المتوحِّشين القُساةِ الجائعين.»[٤] والحق أنَّه لا يمكن تجنُّبُ هذا الرابط اللازم بين العنصريَّة والنبوءات القياميَّة، كما يبدو في الاقتباس السابق وفي تصريحات كثيرة مماثلة طُبِعتْ أو أُذيعتْ أو أُفصِحَ عنها من قِبَل قطاعٍ متعاظمٍ من اليهود الإسرائيليِّين القادرين على تصوُّر «انهيارِ إسرائيل» بالمعنى **الجسديّ** للكلمة.

١ ـ Rabbi Mayer Schiller, quoted in Issues of the American Council for Judaism, Summer 1998.

٢ ـ Tanya Reinhart, "Stop Barak!" October 2000, http://indymedia.org.il/imc/israel/webcast/index.php3.

٣ ـ Meron Benvenesti, "The Final Battle in a Cyclical War," Ha'aretz, November 30, 2000.

٤ ـ Lee Hockstader, Washington Post, January 16, 2001.

ولكنْ، ومن منظور نقيضٍ تمامًا، فإنَّ فحصًا للحقائق الدامغة التي أفرزَتْها الانتفاضةُ الثانية، ولأعمالِ القتل، وللأضرار الجماعيَّة، وللتنكيلِ بالفلسطينيِّين تنكيلاً غيرَ متكافئ، وللمستوى المروِّع من الدمار اللاحقِ بالبنى التحتيَّة الفلسطينيَّة، لا يُمْكن أن يعزِّز صحةَ ذلك «التهديد» المبالَغ فيه كثيرًا. بل يرَجِّح على العكس أن يبيِّن مثلُ ذلك الفحص لفلسطينيِّين كُثر، ولإسرائيليِّين ضميريِّين كُثُر، ولمحبِّي سلامٍ كُثُر على امتداد الكرة الأرضيَّة، أنَّ المسؤولين والمثقفين الإسرائيليِّين الذي يَصْرخون «إنَّه الخطر الوجوديّ!» إنَّما كانوا يُطْلقون ـ وبخداعٍ شديد ـ إنذارًا كاذبًا، وكأنَّهم يكرِّرون ريبرتوارًا كاملاً من المقطوعاتِ الماساديَّة* التي أجادوا التدرُّبَ على أدائها. ومن وجهة النظر هذه، فإنَّ استحضار الخوف القياميّ المذكور يعبِّرُ عن إدمان إكراهيّ على التلاعب بوسائل الإعلام وقَلْبِ الحقيقة رأسًا على عقب من طرف أولئك المسؤولين والمثقفين الإسرائيليِّين على حدّ سواء، في مسعى يائسٍ لحجب المجزرة البطيئة 〈المرتكبة بحقّ الفلسطينيِّين〉 وللتهرُّب من المسؤوليَّة الأخلاقيَّة المترتِّبة عليها ولاستدرارِ العطف من رأيٍ عامٍّ عالميّ يزداد سخطًا واستياءً 〈من الممارسات الإسرائيليَّة〉.**

إلاَّ أنَّ ثمَّة مثقفين صهاينة أكثرَ تركيبًا وافقوا على أنَّ مثل تلك الاستغاثات مبالَغٌ فيها، فوصفوا «الخطرَ الوجوديَّ» المزعومَ بتعابيرَ مغايرةٍ تمامًا. فالوزير الإسرائيليّ يوسي بيلين، مثلاً، يَكْشف بصدقٍ عن ثيمةٍ ثابتةٍ في الإيديولوجية الصهيونيَّة حين يؤكِّد أنَّ «الصراع الطويل مع جيراننا العرب لم يكن جزءًا من خطّة مؤسِّسي الصهيونيَّة» الذين جاهدوا «لكيْ يعيشوا حياةً طبيعيَّةً ومسالمة في هذا البلد.» وفي رأيه أنَّ الانزلاق إلى صراعٍ أبديٍّ 〈مع العرب〉 سيؤدِّي حتمًا «إلى نهاية مميتة للحلم الصهيونيّ» بحيث «يغادرُ البلادَ أولئك الذين يمتلكون قَدْرًا كافيًا من الشباب والمرونة، وأمَّا اليهود القاطنون في الدول المتقدِّمة فلن يفكِّروا في اللحاق بنا 〈إلى إسرائيل〉.»[١] ويردِّد توماس فريدمان من جريدة **نيويورك تايمز** المعزوفةَ نفسَها، فيذكِّرنا بأنَّه على الرُّغم من كون إسرائيل «بلدًا جبَّارًا جبَّارًا جبَّارًا، وإسبارطةً نوويَّةً» لن تُوشِكَ على الانهيار بسبب الانتفاضات الفلسطينيَّة، فإنَّ نقطةَ ضعفها إنَّما تَكْمن في داخلها، أيْ «في إحساسها بأنَّها عالقةٌ إلى الأبد في صراعٍ طاحنٍ» يُمْكن في النهاية أن «يَحضَّ أفضلَ مواطني إسرائيل وألمَعَهُمْ على الهجرة.»[٢]

ويتصدَّى هنري كسينجر، الذي يدعو بقوَّة إلى «تخلٍّ فلسطينيّ رسميّ عن كل المطالب المستقبليَّة،» للحديث عن هذه الحاجة الحاسمة إلى السَّواء 〈الحالة السويَّة〉 **normality**. فيكتب أنَّ «إسرائيل تَعْتبر السلامَ تتويجًا للنضال من أجل الحصول على

* ـ الماسادا: قلعةٌ قديمة جنوب شرق فلسطين، وهي موقعٌ قيل إنَّه شهد المواجهةَ الأخيرة بين اليهود والرومان في الثورة التي امتدَّت بين عامَيْ ٦٦ و ٧٣ بعد الميلاد. وتقول **الموسوعة البريطانيَّة** إنَّ الجيش الرومانيّ احتاج إلى خمسة عشر ألف جنديّ في مواجهة ألف يهوديّ فقط (بمن فيهم نساءٌ وأطفال)، وطوال عامَيْن كاملَيْن، من أجل احتلال القلعة. وقد آثر اليهود المحاصَرون الانتحارَ على الاستسلام للعبوديَّة، باستثناء سبعة أطفال ونساء. والماسادا اليوم رمزٌ «للبطولة اليهوديَّة،» وواحدٌ من أهمّ المعالم السياحيَّة في «إسرائيل.» (المترجم)

** ـ وضعتُ إضافاتي بين علامتَيْ 〈 〉، في حين أنَّ إضافات المؤلِّف موضوعة بين علامتَيْ [ ]. (م)

١ ـ Yossi Beilin, “Moving Forward After Oslo,” Ha’aretz, November 7, 2001.

٢ ـ Thomas Friedman, “A Mideast Policy for Mr. Bush,” The New York Times, January 19, 2001.

وطن، وتعرِّفه بأنَّه سواءٌ يُنهي المَطالِبَ ويُحدِّد وضعًا قانونيّاً دائمًا.»[١] غير أنَّ ذلك «السواء،» وبعيدًا عن اللياقات الديبلوماسيَّة، إنَّما يُعرَّف على نحوٍ أساسيّ وكافٍ بأنَّه تأبيدٌ للمشروع الصهيونيّ مجسَّدًا بوجود إسرائيل **دولةً يهوديَّةً**؛ ومن ثمَّ فإنَّ هذا «السواء» هدفٌ ⟨إسرائيليّ⟩ أَقْصى يُطْمَحُ إليه. ولمَّا كانت الانتفاضةُ، بأبعادها المختلفة التي سنستعرضها أدناه، تُقَلقِلُ أو تهدِّد جذريّاً آفاقَ تحقيقه، فإنَّ الصهاينة سَيَعدُّونها ـ **بالتعريف** ـ تهديدًا وجوديّاً.

والحقّ أنَّ هذا «الخوف» الراسخَ الجذور على وجود دولة إسرائيل لا يُمْكن أن يُختَزَل ببساطةٍ إلى محض إظهارٍ عابرٍ لپارانويا* جماعيَّة؛ كما أنَّه لا يُمْكن أن يؤوَّل بأنَّه مجرَّد حالةٍ متطرِّفةٍ من الشعبويَّة المُتَبَّلَةِ بأنواع الرُّهاب. فالواقع أنَّه قد تمَّ الإفصاحُ عن هذا «الخوف» ـ وغالبًا بصوتٍ جَهير ـ في الخطاب الرسميّ والثقافيّ في إسرائيل، وهو ما يسلِّط الضوءَ على أولويَّته. بل إنَّ البيان المشترك الذي أصدره الفريقان «المفاوِضان» الإسرائيليُّ والفلسطينيُّ، عقب انتهاء محادثاتهما الأخيرة في طابا، يؤكِّد هو نفسُه بشكلٍ مرهفٍ على وجود ذلك البعبع الجديد، وذلك حين يقول: «لقد كانت محادثاتُ طابا غيرَ مسبوقة، من حيث جوُّها الإيجابيّ، وتعبيرُها عن الإرادة المتبادلة في الوفاء بالحاجات الوطنيَّة والأمنيَّة **والوجوديَّة** لكلّ طرف.» [والتشديد منِّي ـ ع.ب][٢]

من منظوري الخاصّ، وبناءً على التحليل الذي أقدِّمه أدناه، أرى أنَّ «خوف إسرائيل الوجوديّ،» إذا أُوِّلَ بأنَّه قلقٌ على استمرار إسرائيل وعلى شرعيَّتها وعلى ركائزها الأخلاقيَّة كدولة يهوديَّة، إنَّما هو خوفٌ حقيقيٌّ ومبرَّرٌ إلى حدٍّ كبير، وإنْ كان يَبْعث على الأسى من الناحية الأخلاقيَّة. إنَّه خوفٌ ينبثق من عواملَ إكراهيَّةٍ متعدِّدةٍ، فَضَحَتْها انتفاضةُ الأقصى التي كشف جُؤَارُها ونبضُ قَلْبِها ـ بل وَبَعثا إلى الحياة وجسَّدَا من جديدٍ ـ الجريمةَ الأصليَّةَ التي اقترفها اليهودُ الصهاينةُ سنة ١٩٤٨ وبَعْدَها في حقّ الشعب العربيّ الفلسطينيّ. وكما يقول الكاتب الإسرائيليّ بنيامين بيت ـ هالاحمي:

«يبدو الإسرائيليُّون مَسْكُونِين... بلعنة الخطيئة الأصليَّة ضدّ العرب الأصلانيِّين. ولكنْ كيف يمكن الحديثُ عن إسرائيل من دون تذكُّرِ اقتلاع غيرِ اليهود وإقصائهم؟ إنَّ هذه هي الواقعة الأساسيَّة العُظْمى عن إسرائيل، ولا فهمَ ممكنًا للحقيقة الإسرائيليَّة من دونها. إنَّ الخطيئة الأصليَّة تَسْكُنُ الإسرائيليِّين وتعذِّبهم: فهي تَدْمغ كلَّ شيء وتلطِّخ كلّ أحد. ذِكراها تُسَمِّمُ الدَّمَ، وتَسِمُ كلَّ لحظةٍ من الوجود.»[٣] لقد كانت هذه الخطيئةُ الأصليَّة، وهي أكثرُ الخطايا لاأخلاقيَّةً على الإطلاق، هامدةً طوال عقود، هاجعةً «بأمانٍ» تحت سلسلة جديدةٍ متطوِّرةٍ من الخطايا الإسرائيليَّة المقتَرَفَة منذ ذلك الزمن؛ ولكنَّها ـ منذ الانتفاضة الثانية، ونتيجةً لها ـ بُعِثَتْ من رقادها بعنفوان.

---

١ ـ Henry Kissinger, “The Peace Paradox,” The Washington Post, December 4, 2000.

* ـ الزَّوَر الخُيَلائيّ؛ جُنون الارتياب أو الاضطهاد؛ الذُّهان الاضطهاديّ. (م)

٢ ـ Associated Press release, Joint Statement of the Negotiating Teams, January 28, 2001.

٣ ـ Benjamin Beit-Hallahmi, Original Sins: Reflections on the History of Zionism and Israel (Olive Branch Press, 1993), Quoted in “The Origin of the Palestine-Israel Conflict” www.cactus48.com.

سيتمّ التركيزُ في هذه المقالة على ثلاثة أوجه بشكل خاصّ، وهي:

١ ـ الوحشيّةُ التي تَسْتخدمها إسرائيل في سعيها إلى قمع الهبّة الفلسطينيَّة، وهي وحشيَّة تعكس **لاأَنْسَنَةً** dehumanization تُذكِّر بتلك التي تخلَّلتِ «الخطيئةَ الأصليَّةَ» الأولى.

٢ ـ الإسهامُ الوجيز، ولكن الكاملُ، لمواطني إسرائيل الفلسطينيِّين المهمَّشين، في أعمال الانتفاضة. وهذا إسهام حَطَّم ويُحطِّمُ وَهْمَ التعايش مع الاستعمار، ويدشِّن عمليَّةَ **إعادةِ وَصْلِ** أولئك المواطنين بإخوانهم وأخواتهم الفلسطينيِّين في الضفَّة الغربيَّة وغزة ودولِ الشتات.

٣ ـ الولادةُ الجديدة البارزة لما يُشْبه الإجماعَ الفلسطينيَّ والعربيَّ على **حقّ العودة** للاجئي النكبة وسُلالتهم، وهو ما أَشْعل نقاشًا كان هامدًا زمنًا طويلاً عن الأسس الأخلاقيَّة لـ «الدولة اليهوديَّة.»

١ ـ الوحشيَّة الإسرائيليَّة: نموذج في اللاأَنْسنة

لقد دانت المنظَّماتُ العالميَّةُ المعنيَّةُ بحقوق الإنسان، والأممُ المتحدة، وأصحابُ الضمير في كل أرجاء العالم استخدامَ إسرائيل «للقوَّة المفرطة» و«للتكتيكات القتاليَّة» و«للقوَّة الناريَّة غيرِ المتكافئة» في التعامل مع الانتفاضة. وذهبتْ منظمةُ العفو الدوليَّة إلى حدّ الإعلان أنَّ «هناك نسقًا من الانتهاكات المروِّعة لحقوق الإنسان، قد يرقى إلى اعتباره جرائمَ حرب.»[١] سأركِّز هنا على البعد الأخلاقيّ من المسألة، ناظرًا إلى اللاأنسنة الإسرائيليَّة في التعامل مع قطاع هشّ وبريء بشكل خاصّ من بين الضحايا الفلسطينيِّين: وهو الأطفال. لعلّ أمورًا قليلة جدّاً تستدعي إدانةً جماعيَّةً مثلَ ما تَستدعيه إصابةُ طفلٍ عمدًا؛ وقد كتب بياليك يقول: «لم يَخْترع الشيطانُ عقوبةً تُناسِبُ قتلَ طفلٍ.»[٢] وتُثْبت البراهينُ الكاسحة، التي جَمَعَها بعنايةٍ العاملون في منظمات حقوق الإنسان والصحافيُّون، إطلاقَ إسرائيل النارَ عمدًا على الأطفال الفلسطينيِّين باعتبارهم «أهدافًا مشروعةً» أثناء الانتفاضة. وسيَكْشف فحصٌ لعددٍ من هذه الحالات نَسَقًا من لاأنسنةٍ يُختزل بموجبها الأطفالُ الفلسطينيُّون إلى «أعداء» و«بهائم» و«مهاجِمين معذِّبين» و«إرهابيِّين،» من بين نُعوتٍ أخرى استُخْدِمتْ لوصفهم تمهيدًا لاصطيادهم بضمير نقيّ. بل إنَّ أعمالَ القتل المتعمَّدة تلك روَّعتْ بعضَ مسؤولي الجيش الإسرائيليّ أنفسِهم؛ فقد أوردتْ **هاأرتز** أنَّ «ضابطًا رفيعًا» قال: «لا أحد يستطيع أن يُقْنعني أنَّنا لم نقتل، ومن دون أيِّ ضرورة، عشراتِ الأطفال.»[٣] وستساعد بعضُ الحالات الأكثر كشفًا على دَعْمِ هذا الزعم.

فحتى في عام ١٩٩٦، أيْ قبل الانتفاضة الحاليَّة، قام أحدُ البالغين المسلَّحين «بضربِ ورفسِ طفلٍ [في الحادية عشرة]، فصرَعه أرضًا، ثم وَضَعَ رِجْلَه على عنقه وضربه بمسدّس،» بحسب قول الادّعاء. وقد «عانى الصبيُّ إصابةً في الرأس، وكسورًا في العمود الفقريّ، ومات في اليوم التالي في المستشفى.»[٤] في بادئ الأمر برَّأ القاضي القاتلَ، قائلاً إنَّ الصبيّ «مات من تلقاء نفسه نتيجةً لضغطٍ نفسيّ؛» ولكنْ لاحقًا، وتحت ضغطٍ من المحكمة العليا التي أَسْمَت الحادثة «قتلاً خفيفًا،» حَكَمَ ذلك القاضي عليه بـ «ستة شهور

١ ـ Reuters, “Amnesty Slams Israel for Role in Mideast Violence,” November 1, 2000.
٢ ـ Bialik, quoted in Israel Shamir, “Acid Test Failed,” the internet, December, 2000.
٣ ـ Ha’aretz, December 12, 2000.
٤ ـ Reuters, January 22, 2001.

يقضيها في الخدمة الاجتماعيَّة،» وغرَّمه بضعَ آلافٍ من الدولارات. والدُ الصبيّ اتَّهم المحكمة بإصدار «إذْنٍ بالقتل.»(1) ووصف صحافيٌّ أخلاقيٌّ الغرامةَ ببلاغةٍ، فقالَ إنَّها «أسعار تصفية بسبب نهاية الموسم» على أرواح الأطفال الفلسطينيِّين، مشيرًا إلى اكتشافاتِ منظَّمةٍ من منظَّمات حقوق الإنسان وَثَّقتْ عشراتٍ من الحالات الشبيهة بُرِّئ فيها المجرمون أو تلقَّوا حُكْمًا طفيفًا.(2) والحقّ أنَّ على الحُكْم الأخلاقيّ أن يكون واضحًا، بغضّ النظر عن هويَّة المجرم، أو هويَّةِ «القضاة،» أو هويَّةِ الصحافيّ الأخلاقيّ، أو هويَّة المنظَّمة المعنيَّة بحقوق الإنسان، أو هويَّةِ ذلك الشكل الصغير الضئيل من الحياة الذي كان ذاتَ يوم معلَّقًا بذلك الرأس والعمود الفقريّ المكسورَيْن؛ ولكنَّ هويَّات المجرم والقضاة والصحافيّ والمنظَّمة الإنسانيَّة (إنْ كان ذلك يهمّ أصلاً) هويَّةٌ يهوديَّةٌ إسرائيليَّةٌ، في حين أنَّ الصبيّ فلسطينيٌّ من الخليل، عمرُه 11 عامًا، وكان اسمهُ حلمي شوشة.

كما وثَّقتْ عدَّةُ منظَّماتٍ لحقوق الإنسان، ومن بينها منظَّمةُ «أطبّاء من أجل حقوق الإنسان» الواقعةُ في بوسطن، نَسَقًا كاملاً من القنّاصة الإسرائيليِّين الذين يَستهدفون عيُونَ الأطفال الفلسطينيِّين أو رُكَبَهُم، وبـ «نيَّةٍ واضحةٍ في الأذى.» وقد كتبتْ تينا رينهارت: «هناك ممارسة شائعة، وهي إطلاقُ رصاصة معدنيَّة مكسوَّةٍ بالمطّاط على العيون مباشرةً ـ وتلك لعبة صغيرة يؤدِّيها جنودٌ حسنو التدريب، وتقتضي دقَّةً قصوى.»(3) إنَّ بمقدور هؤلاء القنّاصة أن يروا تلك العيونَ وحدَها، «عيونَ النَّسْر،» من دون الوجه، ومن دون الشخص، أيْ من دون الطفل القابع خلف هذه العيون؛ وبمقدورهم أن «يقتلعوها» بـ «احتراف.» وهناك صحافيّ من مجلة **نيويورك تايمز** قضى أسبوعَيْن يراقب «الاشتباكات» عند «نقطة متفجِّرة» في غزّة بين الأطفال الفلسطينيِّين المزوَّدين بالحجارة والنقّافات، والجيشِ الإسرائيليّ المسلَّح بالدبابات و«الآلات البالغةِ الدقَّة،» فكتب يقول: «طوال الوقت الذي قضيتُه في كارني لم يبدُ أنَّ ثمَّة جنديًّا إسرائيليًّا واحدًا تعرَّض لخطر الموت. بل ولم يُجرحْ جنديٌّ إسرائيليٌّ أو مستوطِنٌ واحد. ولكنْ في تلك الفترة، قُتِلَ 11 [طفلاً] فلسطينيًّا على الأقلّ في أوقات النهار...»(4) بسبب الذخيرة الإسرائيليَّة الحيَّة.

إنَّ ما يُثير الفلسطينيِّين في ما يجري أعلاه لا يَقْتصر على الوحشيَّة البالغةِ المستخدَمَةِ ضدّهم، بل يتعدَّاها إلى الذكريات المؤْلِمة التي تؤجِّجها. أوردتْ جريدةُ **دافار** الإسرائيليَّة أنَّ محاربًا يهوديًّا قديمًا قاتَلَ في الغزو الصهيونيّ لفلسطين عام 1948 وصَفَ جانبًا مزعجًا جدًّا لمجزرةٍ حدثتْ ذلك العام في قرية الدَّوايمة الفلسطينيَّة، على يد كتيبة الكوماندوس الإسرائيليَّة رقم 89 أثناء «الهجوم على النقب،» فقال: «لقَتْلِ الأطفال قام [الجنودُ اليهودُ] بكسر رؤوسهم بالعصيّ. ولم يكن ثمَّة منزلٌ واحدٌ من دون جثث.»(5) ويوافق المحقِّقُ البريطانيُّ الأوَّل في مذبحة أخرى، هي مذبحة دير ياسين، على غَلَبَة مثل هذه الممارسات، فيوثِّق أنَّ «عدَّة أطفال قد ذُبِحُوا كذلك.» ولهذا يجب النظرُ إلى إطلاق النار طوال 45 دقيقة على محمد الدرَّة البالغِ من العمر 12 سنة ضمن هذا السياق، بما يطابِقُ القاعدةَ، لا بوصفه استثناءً حزينًا منها.

1 ـ Phil Reeves, "Fury as Court Frees Settler," The Independent, January 22, 2001.
2 ـ Gideon Levy, Ha'aretz, January 28, 2001
3 ـ Tanya Reinhart, "Don't Say You Didn't Know," Indymedia, November 2000.
4 ـ Michael Finkel, "Playing War," New York Times Magazine, December 23, 2000.
5 ـ Davar, September 6, 1979, quoted in: Michel Palumbo, The Palestinian Catastrope (London: Quartet Books,) p. xii.

وأورد جيدعون ليفي أيضًا، وهو صحافيّ إسرائيليّ يتميَّز بأخلاقيَّته واحترافه، تقريرًا في **هاآرتز** عن شكلٍ آخر من القتل البطيء: وهو الحصار. فـ «إلاّ،» وهي بنتٌ في العاشرة من قرية السَّاوية قرب نابلس، قاست أوجاعًا مبرِّحة في بطنها، الأمرُ الذي أَجْبَرَ والدَها على محاولة اختراق الحصار العسكريّ الإسرائيليّ المضروب بشدّة حول قريتهما عدَّة مرَّات متتابعةٍ أثناء الليل، دونما جدوى، من أجل أخذها إلى أقرب مستشفى في نابلس. غير أنَّ الحصار العديمَ الرحمةِ أَغْلق كلَّ الطرق المؤدِّية خارج القرية. وفي الصباح ماتت «إلاَّ» نتيجةً لـ «انفجار الزائدة» كما كُشِف لاحقًا.[١]

لقد كان بياليك مُحِقّاً في وصفه!

أمَّا بعيدًا عن عالم الأطفال فلم يكن سجلُّ إسرائيل الأخلاقيّ أقلَّ صعقًا على الإطلاق: فالإعدامات من خارج النظام القضائيّ (وقد «شُرِّعتْ» الآن بفضل النائب الإسرائيليّ العامّ،[٢] وشُرِّعتْ مؤخَّرًا كسياسة إسرائيليَّة رسميَّة بما يشكِّل انتهاكًا فظّاً للقانون الدوليّ)، وإطلاقُ النار على المعتقلين العُزَّل المقيَّدي الأيدي،[٣] ومنعُ سيّارات الإسعاف طوال ساعات من إنقاذ حياة الجرحى،[٤] وقتلُ المارَّة الأبرياء نتيجةً لـ «الإرهاق الناجم عن الحرب،» و«أخذُ <الجنود الإسرائيليِّين> صُوَرًا تَجْمعهم بضحاياهم [الفلسطينيِّين المضروبين بشدَّة] بعد أن يَحْلِقوا رؤوسَهم من شعورهم كغنائم الصيد،»[٥] قد كانت كلُّها «مشاهدَ» في ريپرتوار الموت المروِّع هذا. وثمَّة مشهدٌ بارزٌ وَرَدَ وصفُه في رسالة إلى **هاآرتز**،[٦] كتبها ضابطٌ سابقٌ في الجيش الإسرائيليّ، فقال: «صُعقتُ لرؤية جنود [إسرائيليِّين] يَجُرُّون شاباً فلسطينيّاً مدمّى في شوارع الخليل. لقد أَظْهرتْ هذه الصورةُ الصادمةُ جنودَنا أناسًا ساديِّين يَبْتهجون لقتل شابٍّ، ولجرِّ جسدِهِ إلى المستوطنين لكي يَبْتهجوا هم أيضًا ولكيْ يَرْقصوا ويتبادلوا الحلوى والتهاني وليَرْفسوا الجسدَ الذي لم يَمُتْ بعدُ.»

وبمناسبة ذكر التهاني، فإنَّ الزعيم الصهيونيّ مناحيم بيغن ـ بُعيْد إذاعة أنباء مجزرة دير ياسين عام ١٩٤٨، حيث قُتل ٢٥٠ مدنيّاً فلسطينيّاً على يد منظمتَيْ إرغون وشتيرن الإرهابيَّتَيْن ـ أَرْسل رسالةً سريعةً إلى المهاجِرين يقول فيها: «تقبَّلوا التهاني على هذا النصر الرائع. أَخْبِروا الجنودَ أنَّكم صنعتم التاريخَ في إسرائيل.»[٧] وبالعودة إلى الضابط الإسرائيليّ السابق الذي يَمْلك وازعًا من ضمير، فإنَّه يواصل حديثَه قائلاً: «إنَّ ذلك يذكِّرني بالفهود الشيتا والضِّباع، التي تَقْتل فريستَها ثم تجرُّها. ولكنَّ المشكلة هي أنَّ هذه الحيوانات تَقْتل لتعيش، في حين أنَّ جنودنا يَقْتلون ليحافِظوا على الاحتلال الذي هو نظامُ فصل عنصريّ [أپارتايد].»

غير أنَّ مثلَ هذه الأقوال، المعبِّرةِ عن غضبٍ أخلاقيٍّ شَعَرَ به بعضُ الإسرائيليِّين، قلَّما جُهِرَ بها أثناء الانتفاضة، ويا للأسف. فقلَّةٌ قليلةٌ من الإسرائيليِّين جَهَرَتْ علنًا باعتراضها الأصيل على لاأخلاقيَّة أعمال القتل. ومن جهة ثانية كان ممثِّلو «اليسار» السياسيّ الإسرائيليّ معنيِّين في الدرجة الأولى بالآثار السلبيَّة التي قد تَجْلبها إذاعةُ مثل هذه الأعمال على الصورة الإسرائيليَّة في الخارج!

١ـ Gideon Levy, Ha'aretz, January 7, 2001.
٢ـ Ha'aretz, February 1, 2001.
٣ـ Ha'aretz, January 8, 2001.
٤ـ Mary Robinson, Report of the UN High Commissioner on Human Rights, November 2000.
٥ـ Lee Hockstader, Washington Post & San Francisco Chronicle, September 19, 2000.
٦ـ Ha'aretz, January 17, 2001.
٧ـ Jabotinsky Archives, quoted in Palumbo, p. 55.

تلك كانت بعضَ «المشاهد،» من بين مشاهد كثيرة أخرى، استَحْضرت أحداثَ عام ١٩٤٨ في أذهان أولئك الفلسطينيّين الذين مازالوا يتذكّرونها. فلقد كان الاستعماريُّون يَعْرضون أمام أعين هؤلاء الفلسطينيّين بعضًا من الثيمات اللاأخلاقيَّة ذاتها، وكأنَّهم يَرْضحون لهتافاتٍ تُصرّ على إعادة العرض يُطْلقها جمهورٌ إسرائيليٌّ مُهَلِّلٌ... أو يُطْلقها جمهورٌ لامبالٍ إلى حدٍّ كبير، هو الذي يُهلِّلُ في سرِّه. أمَّا بالنسبة إلى من كانوا أصغرَ سنّاً من أن يتذكّروا ما جرى عام ١٩٤٨، فقد كانت الممارساتُ الإسرائيليَّة الحاليَّة والقناعاتُ الإيديولوجيَّة التي استندت إليها تلك الممارسةُ درسًا مكثَّفًا في التاريخ والسياسة والأخلاق. وفي الختام احتلّ الاستعمارُ الأصليُّ عام ١٩٤٨ قلبَ المسرح، مُلْهِمًا خطابًا جديدًا تمامًا.

٢ ـ المواطنون الفلسطينيُّون في إسرائيل <مناطق ٤٨>: الانعتاق الذاتيّ في مواجهة «السَّواء»

لاحظَ فرانتز فانون، ببصيرته الثاقبة:

«أنَّ الاستعمار لا يَكْتفي ببَسْط سلطته على حاضرِ البلد المحتلّ ومستقبله. إنَّ الاستعمار لا يرضى بمجرَّد إحكام قبضته على شعبٍ ما، وإفراغِ عقلِ المواطن الأصلانيّ من كل شكلٍ ومضمون. بل إنَّه، وبمنطقٍ منحرفٍ، يلتفت إلى **ماضي** الشعب المقموع، فيشوِّهه ويحرِّفه ويدمِّره...»[١]

على الرُّغم من أنَّ كلمة «استعمار» لم تُذكر أبدًا تقريبًا في سياق الحديث عن حكم إسرائيل لحدود «ها» قبل حرب عام ١٩٦٧، فإنَّ الانتفاضة الثانية قدَّمتْ لأفراد الأقليَّة الفلسطينيَّة الذين قُمِعوا زمنًا طويلاً في إسرائيل فرصةً للتطهُّر الشعوريّ، ودربًا حقيقيّاً لتحرير ذاكرتهم الجمْعيَّة المغلولة وعقولهم المستعمَرة، حتى مِنْ قَبْلِ أن يتصدَّوا لفكّ قيودهم الأكثرَ محسوسيَّةً. فالحال أنَّ كوابتهم الشاملة، التي حَرَمَتْهم أكبرَ حقّ أساسيٍّ وهو تسميةُ وضعهم باسْمه الحقيقيّ، كانت في السابق من التقييد بحيث صَعُبَ تحدِّيها. لقد عجز الفلسطينيُّون في إسرائيل طوال ٥٢ عامًا عن مجرَّد التعبير عن حقيقةِ أنَّهم هم **أيضًا** كانوا تحت حكمٍ استيطانيٍّ كولونياليٍّ، وإنْ في مرحلةٍ أبكر، مع ما يَحْمله هذا الحُكْمُ من خصائص معروفة: من إذلال، وحرمانٍ متواصل، واستعبادٍ اقتصاديّ، وتهميشٍ سياسيّ، وإنكارٍ لروايتهم التاريخيَّة، بل وإنكارٍ وإنْ لوميضٍ ضئيلٍ من الأمل في حياةٍ خاليةٍ من العنصريَّة ومن السِّياط الكولونياليَّة الحديثة. ولم يُسْمح لهم بأن يعيدوا وَصْلَ أجزاء تاريخهم أو أن يَرْتقوا هويَّتَهم الممزَّقةَ لكي تعود واحدةً سليمةً من جديد.

كان واحدًا من أكثر السياط فعّاليةً في مخزون المستعمِرين، ومايزال، هو فرضُ تصوُّرهم عن المستعمَرين على عقول أبناء البلد المُخْضَعِين. فمن منظور كولونياليّ، كما يقول فانون، «يُعلَن أنَّ ابن البلد عديمُ الإحساس بالقيم الأخلاقيَّة؛ إنَّه لا يمثِّل غيابَ القيم فحسب بل إنكار القيم أيضًا... إنَّه الشرّ المطلق.»[٢] وبعد أن استَبْطن مواطنو إسرائيل الفلسطينيُّون الكابحَ الأقسى ذاك أَقْنعوا أنفسَهم بأنَّ تَوْقهم إلى الحريَّة أمرٌ لاأخلاقيٌّ أساسًا، فضلاً عن كونه «حالمًا.» غير أنَّهم، من خلال فِعْلهم التأمُّليّ، أو ما يسميه پاولو فريري «الپراكسيس» Praxis، توصَّلوا إلى إدراك إمكانيَّة أن

١ ـ Frantz Fanon, The Wretched of the Earth (MacGibbon & Kee, 1965), p. 170.
٢ ـ Ibid, p. 43.

يناضلوا من أجل انعتاقهم من دون أن يَخْسروا أخلاقيَّتَهم؛ لقد أَدْركوا أنْ ليس ثمَّة تناقضٌ أساسيٌّ بين الأَمْرَيْن، وأنَّهم ليسوا أبدًا مُلْزَمين أخلاقيّاً بالحفاظ على نظامٍ يَقْمعهم ولا مُلْزَمينَ بتشريعه. يقول جان پول سارتر «إنَّنا لا نصير ما نحن عليه إلاَّ بالرفض الجذريّ والراسخِ لما جَعَلَنا الآخرون نَكُونُه.»(١) ولهذا فإنَّ توقُّعَ قبول الفلسطينيِّينَ عبوديَّتَهم إنَّما هو في أفضل الأحوال مفهومٌ يعاني عيوبًا منطقيَّةً وأخلاقيَّةً، كما أنَّه في أسوإ الأحوال موقفٌ كلبيٌّ وخادعٌ واستعماريٌّ يَسْتلزم المجابهة. يقول جان جاك روسّو: «إنَّ الرجل الأقوى ليس دائمًا من القوَّة بحيث يبقى سيِّدًا كلَّ الوقت، إلاَّ إذا حوَّلَ قوَّتَه حقّاً وطاعَتَهُ واجبًا... القوَّةُ ماديَّة؛ ولا أرى كيف تُنتِجُ آثارُها أخلاقًا. إنَّ الاستسلام للقوَّة عملٌ ناجِمٌ عن الحاجة، لا عن الإرادة؛ إنَّه في أحسن الأحوال عملٌ من أعمال الحِكْمة. ولكنْ كيف يمكن أن يكون واجبًا أخلاقيّاً؟»(٢)

لقد أَفْصحت الانتفاضةُ الثانيةُ عن تلك الاحتقانات والتطلُّعات التي كُبِتتْ زمنًا طويلاً، فأتاحت لها الانصبابَ سيلاً عرمرمًا من الطاقة التحويليَّة. وإذْ دُهِشَ أكثرُ الإسرائيليِّين لـلانتفاضة القادمة «من الداخل» عبَّروا عن عدم تصديقهم، بل عن صَدْمتهم، لما رأوه؛ وهذا ما كان متوقَّعًا منهم بالنظر إلى إنكارهم الطويل «لمشكلتهم الفلسطينيَّة الأخرى،» بتعبير **نيويورك تايمز**، وإلى افتراضهم المسبَّق الساذج أنَّ الفلسطينيِّين في إسرائيل قد ارتضَوْا أن يبقوا العبيدَ الأبديِّين الجددَ للدولة اليهوديَّة. وقد بَلَغَ ذلك الإنكارُ ذروتَه أثناء الانتفاضة. فقد عكستْ وسائلُ الإعلام الإسرائيليَّة شعورًا طاغيًا بالخيْبة، إنْ لم يكن بالخديعة، من أعمال «الإسرائيليِّين العرب» التي «لا يُمْكن أن تُفسَّر» نظرًا لأنَّ هؤلاء «تجاهلوا كلَّ امتيازاتهم» في إسرائيل وخَرَجوا إلى الشوارع بقوَّة ليعبِّروا عن دعمهم المتَّقِد للفلسطينيِّين في الضفَّة وغزة! وذهبتْ بعضُ وسائل الإعلام إلى حدِّ اتِّهامهم بانتهاج سياسات «الطابور الخامس.» فاتُّخِذتْ تدابيرُ «احترازيَّة» عسكريَّة قرب البلدات العربيَّة، وذلك بعد أن سمَّى تقريرُ أمنيٌّ صادرٌ عن أرفع المستويات سكّانَ تلك البلدات «جماهيرَ معاديةً»(٣) تهدِّد «الأمنَ اليهوديّ.» وفي زلَّةِ لسانٍ واضحة عبَّر الرئيسُ الإسرائيليُّ موشيه كاتساڤ عن عرفانه لكون «أعمال الشَّغَب قرَّبت الإسرائيليِّين بعضَهم من بعض،» متناسيًا أنَّ خُمْسَ المواطنين <أي «عرب إسرائيل»> كانوا يتلقَّوْن الرصاصَ الحيَّ والملامةَ والدعاياتِ المبغِضة.(٤) ويُمْكن اعتبارُ تلك الاتِّهامات الموجَّهة إلى العرب نتيجةً طبيعيَّةً لإدراك الإسرائيليِّين اليهود المضطرب لـ «الإسرائيليِّين العرب،» ونتيجةً طبيعيَّةً ـ من ثم ـ لتوقُّعاتِهم المضطربةِ من هؤلاء. بل إنَّ «اليسار الصهيونيّ» نفسَه، كما يحاجج عضوُ الكنيست د. عزمي بشارة، «يؤْمن أنَّه يَمْلك الصورةَ الصحيحةَ عن العرب ثم يفاجأُ حين لا يرقى العربُ إليها!»(٥)

قُمعتْ مظاهراتُ المواطنين العرب بقسوةٍ بالغة، فاستُخدِمت الذخيرةُ الحيَّة ووسائلُ قتاليَّةٌ مميتةٌ أخرى، «بهدف القتل أو الإصابة،» على نحوِ ما كَشَفتْ تقاريرُ منظَّمة العفو الدوليَّة. وقد تقبَّل معظمُ الإسرائيليِّين، كما أَثْبَتَت استطلاعاتُ الرأي العام، خطَّ التفكير الإسرائيليّ الرسميّ الزاعم أنَّ الحكومة تصرَّفتْ «دفاعًا عن النفس،

١ ـ Jean-Paul Sartre, “Introduction to The Wretched of the Earth,” ibid, p. 14.
٢ ـ Jean-Jacques Rousseau, The Social Contract (London: Penguin, 1968), p. 52.
٣ ـ Mazal Mualem, Ha’aretz, November 1, 2000.
٤ ـ Ha’aretz, October 5, 2000.
٥ ـ Azmi Bishara, “A Double Responsibility,” Middle East Report 217, Winter 2000.

وانتقامًا للعنف الذي بدأه العرب.» غير أنَّ مفهوم «الثأر» الإسرائيليّ الخاصّ هذا يَعْكس ما أُسمِّيه رؤيةً فوتوغرافيَّة فوريَّة snapshot vision، وهي رؤيةٌ تجمِّد الواقعَ زمنًا ومكانًا، وتَعْزله عن سياقه العامّ، ثم تُبْرزه على هذه الصورة وكأنَّه الحقيقةُ ولا شيءَ إلّاها. فالحقّ أنَّه لو استَعْبد زَيْدٌ عَمْرًا سنواتٍ طويلةً، فتمرَّد عَمْرو ذاتَ لحظةٍ بشكلٍ فجائيّ، فليس على زيدٍ أن يدَّعي أنَّ عَمْرًا هو البادئ. لقد بدأتْ سيرورةُ الأحداث قَبْلَ تمرُّد عَمْرٍو بزمنٍ طويل. إنَّ العنفَ المتأصِّل في سيطرة زيد هو تحديدًا ما يتراكم في وعي عَمْرو، دافعًا إيَّاه في النهاية إلى تحطيم القواعد القديمة. وقد شرح فريري هذا الفرقَ بين الاستهلال والردّ، معتبرًا أنَّ عرقلةَ المرء عن «السعي إلى إثبات وجوده» هي في حدِّ ذاتها استهلالٌ للعنف لأنَّها «تتعارض مع رسالة المرء الأنطولوجيَّة والتاريخيَّة في أن يكون إنسانًا كاملاً.» وهو يَسْتنتج أنَّ العنف يُسْتَهلّ بمجرَّد حلول الوقت الذي تُولد فيه علاقاتُ القمع، فلا يُمْكن ـ والحالُ هذه ـ عدُّ أيِّ عنفٍ مضادّ من طَرَفِ المقموع استهلالاً للعنف. ويَذْهب فريري إلى حدّ الإعلان التالي: «العنفُ لم يُستهلَّ يومًا في التاريخ على يد المقموعين. وكيف يكونون هم البادئين إذا كانوا هم حصيلةَ العنف؟ كيف يكونون هم رُعاةَ شيء يسبِّب استهلالُهُ الموضوعيُّ وجودَهم مقموعين؟»[١]

بيْدَ أنَّ محاولة تسويغ الردّ الإسرائيليّ الدامي تُغيِّر بشكلٍ هائلٍ من نظرة الغالبيَّة اليهوديَّة إلى الفلسطينيِّين الأصلانيِّين. فقلَّةٌ قليلةٌ من الإسرائيليِّين اليهود استطاعوا أن يميِّزوا الأمور من وراء هذا الضباب الكثيف، وأن يُقِرُّوا بتغيُّر طبيعة هذه المجموعة القوميَّة؛ وكان جدعون ليڤي واحدًا من تلك القلَّة القليلة. فقد كَتَبَ في **هاآرتز**:

«إنَّ المجتمع العربيّ في إسرائيل يَشْهد جيشانًا، ويَشْهَد ممثِّلوه في البرلمان الإسرائيليّ جيشانًا موازيًا. وبدلاً من مجتمعٍ خاضعٍ منبطحٍ يَرْفع في عيد الاستقلال <عيدِ الاحتفال بتأسيس إسرائيل> عَلَمَيْن إسرائيليَّيْن لا علمًا واحدًا فقط، على نحوِ ما لاحظ الكاتبُ والناشطُ الراحلُ إميل حبيبي بسخريةٍ لاذعةٍ، ينبثق اليومَ مجتمعٌ آخرُ فخورٌ ومناضل.»[٢]

وهناك محاولة جديَّة أخرى لفهم هذا التغيُّر «المفاجئ» وتمثَّلتْ في تقريرٍ بحثيّ أجراه فريقٌ صريحٌ في رفضه الامتثالَ <للرأي الإسرائيليّ السائد>، مؤلَّفٍ من ٢٦ أكاديميّاً من اليهود والعرب معًا. وقد عُرِض التقريرُ أمام باراك على أثر اندلاع الانتفاضة الثانية، فطالب الحكومةَ بتبنِّي إجراءاتٍ شاملةٍ وعميقةٍ لتقويم الظلم اللاحق بالمواطنين الفلسطينيِّين، وذلك بهدف إصلاح التفكُّك الخطير في علاقة الدولة بهم. يقول التقرير:

«إنَّ دولة إسرائيل، بمؤسَّساتها وقيمها، تعبِّر تعبيرًا حسنًا عن المصالح الوطنيَّة والمشاعر الثقافيَّة للغالبية اليهوديَّة. وتبعًا لذلك فإنَّ تخوم إسرائيل المدنيَّة مطابِقةٌ في الحقيقة لتخوم القوميَّة اليهوديَّة، كما أنَّ الحقوقَ الممنوحةَ للمواطنين اليهود في إسرائيل أعظمُ كَمّاً وأهميةً من تلك الممنوحة لمواطني إسرائيل العرب. إنَّ الدولة الإسرائيليَّة مبنيَّةٌ حول لبّ الذاكرة التاريخيَّة اليهوديَّة التي تشدِّد على تراث النفي والهولوكوست <المذابح النازيَّة بحق اليهود> والانبعاثِ، في حين أنَّ قيمها الأساسيَّة ومؤسَّساتها تقدِّس عالمَ المفاهيم المتَّصلة بتلك الذاكرة وحدها.»[٣]

ـ ١ Paulo Freire, Pedagogy of the Oppressed, Trans. by Ramos (New York: Herder & Herder, 1972), p. 40.
ـ ٢ Ha'aretz, November 12, 2000.
ـ ٣ Ha'aretz, November 27, December 6, 2000.

وإذ يقُرّ التقريرُ بالهويَّة **الفلسطينيَّة** «الإثنيَّة ـ القوميَّة» لمواطني إسـرائيل العـرب، يدعـو إلى الاعتـراف بحـصـول «النكبـة» وإلى الاعتذار عنها. ويَقْترح أنَّ إقرارًا رسميّاً بهذه الحادثة الحاسمة هو وحده ما قد يُرسي دعائمَ تسوية مستقبليَّةٍ وتعايشٍ حقيقيّ. ويقول إنَّ السـبب في ربط الأمـرَيْن هو أنَّه بعـد حـرب ١٩٤٨ «وجـد المواطنون العربُ أنفسهم رعايا دولةٍ فُرِضتْ عليهم ولا تمثِّل رؤيتَهم السياسيَّة، بل بُنيتْ في حقيقة الأمر على أنقاضهم.»

غـيـر أنَّه لا يُمْكن في أيِّ شكلٍ تصـوُّرُ مـا هـو أكـثـرُ تميـيـزيَّةً واستبعاديَّةً وقمعًا بحقِّ الفلسطينيِّين أبناءِ البلد من **يهوديَّة** الدولة الإقصائيَّة. وليست ثمَّة أيُّ درجة من يهوديَّة الدولة يُمْكن يومًا أن تُلزِمَ هؤلاء الفلسطينيِّين أخلاقيّاً، لأنَّ ذلك يعني أسـاسًا إذعـانَهم لحصيلة المرحلة **الأولى** من الاستعمار الصـهيوني لأرضهم. إنَّ الأعمال اللاأخلاقيَّة لا تصبح أقلَّ لاأخلاقيَّةً بمرور الزمن؛ قد تُنْسى فـترةً ما، ولكنَّها لا تُغْفَرُ قطّ. بل الحقّ أنَّ التجربة المعذِّبةَ والمُقِضَّةَ المتمثِّلة في التطهير العرقيّ الأول عام ١٩٤٨ تتدفَّق اليومَ ـ مع الانتفاضة الثانية ومع انبعاث حقّ عودة جميع اللاجئين الفلسطينيِّين ـ إلى واجهة الذاكرة الفلسطينيَّة الجـمـعـيَّـة في إسـرائيل وفي كلِّ مكانٍ آخر. ذلك أنَّ قضيـة اللاجئين قد كانت ولاتزال، في نهاية المطاف، في قلب قضيَّة فلسطين وروحها.

٣ ـ حقّ العودة: الاختبار الأساسيّ للأخلاقيَّة

في خصوص مسألة «الصفاء العِرْقيّ» والكراهية الشوفينيَّة للآخر، أَظْهر السياسيُّون الإسرائيليُّون والمثقَّفون الذين يدَّعون أنَّهم من أهل اليسار أنَّ أحزاب اليمين المتطرِّف في أوروبا تبدو بَعْدَ المقارنة بهم أشبهَ بالأم تيريزا حُبّاً لبني البشر! غير أنَّ الفارق الحاسم هو أنَّ اللاأخلاقيَّة في حالة إسرائيل أكثرُ تفاقمًا لأنَّ «الآخرين» هنا ـ خلافًا للمهاجرين الأجانب في أوروبا ـ هم في الحقيقة أبناءُ الأرض الأصليُّون، الذين طُردوا منها ويتوقـون للعودة إليهـا. والمعـادِلُ الأحـدث لأزمـة اللاجـئين الفلسطينيِّين هو مـا حـصل من مـعـاناةٍ للكوسوفيِّين، الذين طُردوا من قراهم وبلداتهم ثم عادوا لاحقًا بعد حرب وجيزة ولكنْ «مظفَّرةٍ» خاضها حلفُ الناتو ضدّ معذِّبيهم. يَكْتب جدعون ليفي، عاقدًا الصلةَ بين الأزمتَيْن ببصيرة نفَّاذة:

«بعيد عن العين، بعيدٌ عن القلب: الصُّوَر من كوسوفو تُنقل إلى الإسرائيليِّين من بعيد. وحدَها ذكرى الهولوكوست هي ما يقرِّب هذه الصُّورَ إليهم، لِمَنْ يتذكَّر بالفعل. غير أنَّ كوسوفو كانت هنا حقّاً، إنْ كان هناك مَنْ لا يتذكَّر؛ وقد تَحْدث كوسوفو هنا فعلاً، إنْ كان هناك مَنْ لا يَعْنيه الأمرُ... فبين كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧ وأيلول (سبتمبر) ١٩٤٩، هَرَب أو طُرِد ما بين ٦٠٠ ألف إلى ٧٦٠ ألفًا من العرب الفلسطينيِّين من بيوتهم، فتحولَّوا بين ليلة وضحاها إلى لاجئين. لقد تَحَطَّم العالمُ فوق رؤوسهم، ولم يُشْفَوا <من مأساتهم> بعدُ.»(١)

ويصف محمود درويش تجربةً أكثرَ ذاتيَّةً، هي تجربةُ المنفى القاسي في لبنان والانتظار الطويل من أجل العودة، فيقول إنَّ جدّه مات يَعدُّ النجومَ والفصولَ ودقَّاتِ القلب على أصابع يديه الذابلتَيْن، وسَقَط كثمرةٍ حُرِمَتْ جذْعًا تُسْنِد عمرَها إليه؛ فلقد حطَّموا قلبه.(٢)

إنَّ حقَّ العـودة، الذي بات إنكارهُ يُعـرِّف لاسَـوِيَّةَ abnormality إسرائيل، هو ما يعتبره الفلسطينيُّون لبَّ الصراع. وعليه فإنَّ هذا، وحقيقةَ أنَّ حقّ العودة يلخِّص بحدّةٍ مأساةَ شعب فلسطين بأسرها،

ـ ١ Ha'aretz, November 12, 2000.
ـ ٢ Mahmoud Darwish, Excerpts from "Memory for Forgetfulness," Al-Ahram Weekly, The Nakba Archive.

يجعلان من هذا الحقّ الامتحانَ الأخلاقيَّ الضروريَّ لكلِّ مَنْ يقترح حلاً **أخلاقيّاً** للصراع. وكان أبرزَ الراسبين غير الإسرائيليِّين في هذا الامتحان هو الرئيس الأميركيّ السابق بيل كلينتون. ففي خطابه التاريخيّ الأخير أمام «منبر السياسة الإسرائيليَّة» ذكَّر الإسرائيليِّين أنَّ أرضهم هي أيضًا أرضُ الفلسطينيِّين، لكنَّه رفض حقَّ عودة هؤلاء إلى ما بات يسمَّى إسرائيل، مصرّاً بدلاً من ذلك على أنَّ «دولةً» فلسطينيَّةً في المستقبل هي ما يجب أن يَسْتَوعِبَ اللاجئين، وإلاَّ تضعضعتْ «أسسُ الدولة الإسرائيليَّة ذاتُها أو المبرِّرُ الكاملُ لخلق الدولة الفلسطينيَّة.»[١]

ولقد تمّ الإعلانُ الحقيقيُّ عن الانهيار الأخلاقيّ لكلّ أطياف اليسار الإسرائيليّ «الرسميّ» تقريبًا ما إنْ كشفتْ مواقفَها حيال حقّ الفلسطينيِّين في العودة. وهاكم عرضًا لبعض آراء اليسار المذكور، يُعزِّز هذا الجَزْمَ.

فبعضُ مَنْ يُعْلِنون أنفسَهم «ناشطين أساسيِّين في معسكر السلام الإسرائيليّ،» بمن فيهم شخصياتٌ مؤثِّرة مثل ا.ب. يهوشواع وعاموس عوز اللذَيْن صادقا كلاهما على باراك «مرشّحًا لمعسكر السلام،»[٢] ردّدوا موقفَ باراك الرافضَ رفضًا مطلقًا لحقّ العودة في إعلاناتٍ كبرى نشروها في عدّة جرائد، وهي تقول: «لن يكون في وسعنا أن نَقْبل أبدًا عودةَ اللاجئين إلى داخل حدود إسرائيل <عامَ ١٩٤٨> لأنَّ معنى مثل هذه العودة سيكون إلغاءَ دولة إسرائيل.» وكان وزيرُ الخارجيَّة الإسرائيليّ «الليبراليّ» شلومو بن عامي أكثرَ «إنصافًا؛» فقد أَقَرَّ بوجود شيء من العدالة في مطالبة الفلسطينيِّين بهذا الحقّ ولكنَّه سارع إلى إعطاء القيادة الفلسطينيَّة فرصةَ الخيار الرزين بين بديلَيْن: «العدالة أو السلام.»[٣] ذلك لأنَّ البديلَيْن في سياق الصراع العربيّ ـ الإسرائيليّ، من منظور بن عامي، يَسْتَبْعِد كلٌّ واحدٍ منهما الآخر. كما سمَّى بيلين حقَّ العودة «خطأً أحمر،» في حين سمَّاه يوسي ساريد «انتحارًا.»

أمَّا يوري أفنيري، وهو ناشطٌ قديمٌ من أجل السلام، فقد انتقد بحدَّةٍ موقفَ يهوشواع ـ عوز، وسَخِرَ من اقتراح بني موريس (المؤرِّخ الإسرائيليّ الرائد) القاضي بالسَّماح لـ «قطراتٍ» من اللاجئين بالعودة، مُعتبرًا ذلك متناقضًا تناقضًا صارخًا مع «دوره <أيْ موريس> الهامّ في كشف أمر طرد الفلسطينيِّين عام ١٩٤٨.» وبدلاً من ذلك يُقرّ أفنيري بحقّ العودة «بوصفه لبَّ القيم الروحيَّة الوطنيَّة الفلسطينيَّة،» ولكنَّه يَعيب على باراك إثارةَ هذا الحق لأنَّه بعمله هذا «يَرْفس الأسدَ النائمَ في أضلاعه» بإصراره على أنْ تُوقِّع القيادةُ الفلسطينيَّةُ تعهُّدًا «بإنهاء الصراع.» ويقترح أفنيري «حصَّةً سنويَّةً من ٥٠ ألف <فلسطينيّ> لمدَّة ١٠ أعوام،» غيرَ غافلٍ عن أنَّ إسرائيل تَسْتَوعب ٥٠ ألف مهاجر يهوديّ كلَّ سنة؛ وهدفُ اقتراحه هو الحفاظُ على «الطبيعة اليهوديَّة» للدولة بما لا يهدِّد «الصورةَ الديموغرافيَّة.»[٤]

وثمَّة محاولةٌ أكثر تركيبًا عَرَضَها داني رابينوفيتش، الذي اقترح «إسقاطَ أل التعريف» ومن ثمَّ الحديثَ لا عن «الحق في العودة» the right of return بل عن «حق في العودة» right of return، وذلك من أجل إزاحة هذا الحقّ عن التأويل «المتطرِّف!» المُقَرّ بِهِ

Reuters, January 8, 2001. ـ ١
A.B. Yehoshua & Amos Oz, "Support Barak Conditionally," Ha'aretz, December 19, 2000. ـ ٢
Barbara Demick, Philadelphia Inquirer, January 16, 2001. ـ ٣
Uri Avnery, "The Right of Return," Indymedia. ـ ٤

دُوَلِيّاً.[١] كما اقترح جيروم سيغال، وهو باحثٌ في جامعة ميريلاند، ضَبْطَ «نسبةِ اللاجئين العائدين» من أجل الحفاظ «على شخصيَّة إسرائيل دولةً يهوديَّةً.» وعَرَضَ سيغال ـ في ما قد يُذكِّر بالمواقف العِرْقيَّة التي مضى أوانُها ـ التمييزَ بين اللاجئين الأكبر سنّاً والأحدثِ سنّاً، على اعتبار أنّ الأُوَلَ «أقلُّ تهديدًا» لأنَّهم أساسًا «تخطَّوْا سنَّ الإنجاب!»[٢]

وعليه، فلمَّا كانت الأطيافُ السياسيَّةُ الإسرائيليَّةُ بأسرها تلتقي على رفض حقّ اللاجئين الفلسطينيّين المقدّس في العودة إلى بيوتهم وقراهم وبلداتهم، فإنَّ على أيِّ حلّ «معتدل» قائمٍ على دولتَيْن فلسطينيَّة وإسرائيليَّة أن يتخلَّى بالضرورة عن هذا الحقّ. وما إنكارُ هذه الحقيقة إلاَّ مؤشِّرٌ على تضليلٍ ذاتيّ ساذج أو على خداعٍ خبيث.

لقد أُنشِئتْ إسرائيلُ دولةً استعماريَّةً ـ استيطانيَّةً على أنقاضِ ما كان فلسطين. والتعويضُ المنطقيُّ والشرعيُّ والأخلاقيُّ الوحيد الذي يجب أن يُعطى للسكّان الأصليِّين، في هذه الحالة كما في كلِّ حالةٍ استعماريَّةٍ أخرى في العالم، إنَّما يتجسَّد في قاعدةٍ واحدةٍ هي: إزالة الاستعمار. ولكنْ في مواجهة هذا المفهوم الذي لا مفرّ منه يَقْترح أحفادُ المستعمِرين جميعَ أنواع المعادلات والتركيبات النظريَّة والمتاهات الثقافويَّة بهدف تغييرِ كيفيَّة إدراك **السكّان الأصليّين** لواقعهم وبهدف إزالة «الحواجز النفسيَّة،» بدلاً من أن يَعْملوا على تغيير هذا الواقع نفسه. فمصالح القامعين، بعد كل حساب، تقَعُ بشكلٍ ثابتٍ تقريبًا في «تغيير وعي المقموعين، لا في تغيير الواقع الذي يقمعهم،»[٣] بحسب سيمون دوبوفوار.

إزالة الاستعمار: فلسطين ـ إحياء الاسم والهوية

قال بن غوريون: «لماذا يَعْقد العربُ السلامَ؟ لو كنتُ قائدًا عربيّاً لما تصالحتُ أبدًا مع إسرائيل. وهذا أمرٌ طبيعيّ: فلقد أخذْنا بلادَهم. يقينًا أنَّ اللَّه وَعَدَنا بها، ولكنْ ماذا يهمّهم في ذلك؟ إنَّه إلهنا وليس إلهَهم! بلدُنا أصلاً هو إسرائيل، وهذا صحيح، ولكنّ ذلك كان قبل ألفيْ عام، فلماذا يهمّهم هذا أيضًا؟ لقد كان ثمَّة عداءٌ للساميَّة، وكان هناك النازيُّون، وهتلر و<معسكراتُ الإبادة النازيَّة في> أوشفيتز، ولكنْ أكان ذلك خطأهُم؟ إنَّهم <العرب> لا يروْن إلاَّ شيئًا واحدًا: وهو أنَّنا جئنا إلى هنا وَسَرَقْنا بلدَهم. فلماذا يكون عليهم أن يَقْبلوا ذلك؟»[٤]

حسنًا! حين يتحدَّث مستعمِرٌ، ويتفضَّلٍ فوقيٍّ، باسم السكّان الأصليِّين، فإنَّه كالعادة محكومٌ بتقديم بعض الافتراضات الخاطئة التي تستجيب للصورة التي يعطيها هو نفسُه عن الأصلانيّ ابنِ البلد. وأمَّا نحن فلا نرى شيئًا واحدًا فحسب، **وينبغي** ألاَّ نفعل هذا. ذلك أنَّه إذا كان كلُّ ما نراه من الحضور اليهوديّ في فلسطين نفيًا لحقّنا المعنويّ في الأرض، فمعنى ذلك أنَّنا لن نَمْتلك إلاّ نصفَ الحقيقة. وأمَّا نصفُ الحقيقة الآخر فهو أنَّ علينا أن نَنْظر إلى اليهود في فلسطين بوصفهم بشرًا، فوق كلِّ اعتبارٍ آخر وبما يتجاوز كلَّ اعتبار آخر، وإلاَّ فلن «يُصفّيَ الحساباتِ» غيرُ الثأر. إنَّ على الفلسطينيِّين واجبًا أخلاقيّاً وهو التمييزُ بين «محو الخطإ،» كما يسمِّيه هيغل، والثأرِ. فمحوُ الخطإ يَهْدف إلى أن يُبْطِلَ ما يَجْعل المستعْمرَ مستعمِرًا، لا أن يمحو **الإنسانَ** الكامنَ خلفَ المستعمِر لكونِهِ مستعمِرًا. وأمَّا الثأر

١ ـ Danny Rabinowitz, Ha'aretz, January 4, 2001.

٢ ـ Ha'aretz, February 1, 2001.

٣ ـ Simone de Beauvoir, quoted in Freire, p. 60.

٤ ـ David Ben-Gurion, quoted in Nathan Goldman, The Jewish Paradox, www.cactus48.com.

فيركّز أساسًا على التنفيس عن الغضب وعن الاحتقانِ والذلّ والحرمانِ التي كُبتَتْ زمنًا طويلاً، وهو ما قد يؤدّي إلى أعمالٍ لاأخلاقيَّةٍ كما تَشْهد على ذلك حالاتٌ وافرةٌ من النزاع القوميّ أو الإثنيّ. إنَّ الثأر «لَيَندرجُ في متواليةٍ لانهائيَّةٍ، وينحدر من جيل إلى جيل إلى ما لانهاية،» كما يقول هيغل؛ في حين أنَّ علينا من أجل محو الخطإ، أيْ إزالةِ الظلم اللاحق بنا، أن نُمَفْهِمَ مَطْلبًا للعدالة «لا يتوقَّف بعد الآن على القوَّة» بل على مبادئَ أخلاقيَّةٍ تعمّ جميعَ بني البشر وتَدْعم القيمةَ العليا للإنسانيَّة فوق كل اعتبار.(١)

إنَّه لأعظمُ «إغراءٍ» أن يعوِّض شعبٌ عن عقودٍ من اللاأنسنة بأن يَقْلب الأمورَ، فينزلقَ إلى منطقِ «إطعام السُّمِّ طابِخَه.» ولكنْ، كما أشرنا سابقًا، ليست هناك درجةٌ من الألم أو الظلم يُمْكن أن تبرِّر أخلاقيّاً معاملةَ «الآخر» كما تعاملُ الضحيَّةُ ودونما داعٍ، وإنْ كان هذا الآخرُ هو مَنْ سَبَقَ أن مارسَ القمعَ في زمنٍ ماضٍ. ومع الإقرار بأنَّ الأمر في هذه الحال الأخيرة أصعبُ، فإنَّ إنسانيَّتنا الحقيقيَّةَ وأخلاقيَّتَنا الحقيقيَّةَ إنَّما توضعان هَهُنا تحديدًا موضعَ الامتحان. ذلك أنَّ علينا أن نكون يقظين على الدوام لوجود خطٍّ دقيقٍ مقدَّس بين **نَقْضِ** القمع الاستعماريّ من جهة أولى، و**قمعِ** القامعين السابقين دونما استحقاقٍ من جهة ثانية. وتجاوُزُ هذا الخطِّ، أو الرسوبُ في الامتحان الأخلاقيّ، سيَحْكم على الفلسطينيّين بمستقبلٍ بغيض، وهو أن يُصْبحوا ما كانوا قد كرهوه وناضلوا ضدّه على الدوام: قامعين.

يقول فريري: «إنَّ اللاأَنْسنة، وهي فعلٌ لا يَسِمُ أولئك الذين سُلِبُوا إنسانيَّتَهم فحسبُ بل يَسِمُ أيضًا (وإنْ بطريقة مختلفة) أولئك الذين سَلَبوها، إنَّما هي تشويهٌ للرسالة الأخلاقيَّة الداعية إلى أن يصير المرءُ إنسانًا كاملاً... إنَّ النِّضال [من أجل الأنسنة] أمرٌ ممكن، لأنَّ اللاأنسنة ـ على الرُّغم من كونها حقيقةً تاريخيَّةً ملموسة ـ **ليست** قدرًا معطًى وإنَّما هي نتيجةٌ لنظامٍ ظالمٍ unjust order يولِّد عنفًا في القامعين، فيقوم بدوره بسلب المقموعين إنسانيَّتَهم... ولكي يكون لهذا النضال معنًى، فإنَّه ينبغي على المقموعين وهم يَسْعَوْن إلى استرجاع إنسانيَّتهم (الذي هو شكلٌ من أشكال خلقها) ألاَّ يصبحوا بدورهم قامعين للقامعين، بل أن يعيدوا إلى الطرفَيْن إنسانيَّتَهما.»(٢)

بعد هذا نشير بالتخصيص إلى نموذجَيْن للتحرُّر من الاستعمار هما: الجزائر وجنوبيّ أفريقيا. الأول نموذجٌ للحالة الكلاسيكيَّة في طرد المحتلّ، في حين أنَّ الثاني تجربةٌ جديدة صُمِّمتْ خصِّيصًا لتتكيَّف مع خصوصيَّات التجربة الاستعماريَّة الجنوبأفريقيَّة. في النموذج الأخير أُلغي نظامُ التمييز العنصريّ (الأپارتايد)، ولكنَّ السكَّان البيض نَجَوْا بعد أن وافقوا على تفكيكه وعلى أن يصبحوا سواسيةً مع المواطنين الآخرين في ظلّ الدستور الديموقراطيّ الجديد. وأمَّا حالة فلسطين فهي مثالٌ هامّ، وبخاصة نتيجةً لأوجه الشبه الكثيرة بين الصهيونيَّة والأپارتايد، وبشكلٍ أخصّ لأنَّه ليس ثمَّة «فرنسا» يُرجَعُ إليها. إنَّ طرد المستعمِرين ليس خيارًا أخلاقيّاً في هذه الحالة.

هناك حلول متعدِّدة للأزمة يُمْكن أن تَنْجح في الامتحان الأخلاقيّ المذكور أعلاه، غير أنَّ ما ينبغي أن تَشْترك فيه هو احتكامُها جميعِها لا إلى مبدإ القوَّة بل إلى الواجب الأخلاقيّ والقانونِ الدوليّ والحقوقِ الإنسانيَّة الكونيَّة. ومن البيِّن أنَّ «الدولة اليهوديَّة» هي الإدامةُ الواضحة للنقيض: أيْ إدامةٌ للاستعمار، وللامساواة، وللقمع، وللحرمان. وواحد من البدائل التي قدَّمها مثقفون يهود، منذ زمنٍ يعود إلى كتابات مارتن بوبر والحاخام ماغنس، وقدَّمها مؤخَّرًا مثقفون فلسطينيُّون كعزمي بشارة ثم إدوارد سعيد، هو دولةٌ ثنائيَّةُ

١ ـ Hegel, Philosophy of Right, Trans. by Knox (Oxford University Press, 1973), p. 73.

٢ ـ Freire, p. 28.

القوميَّة في فلسطين التاريخيَّة. وهو بديلٌ يَسْتند إلى مبدإ «تقرير المصير للشعبين كليهما،»[١] بحسب عبارة إدوارد سعيد. والافتراض الضمنيّ هنا هو أنَّ ثمَّة مجموعةً قوميَّةً أخرى مؤلَّفةً من اليهود الإسرائيليِّين يجب أن تمتلك في فلسطين حقّاً يساوي حقّ المجموعةِ القوميَّةِ المؤلَّفة من العرب الفلسطينيِّين. ولكي يكون بمقدور مثل هذه الدولة أن تَشْتمل على القوميَّتَيْن المذكورتَيْن معًا فإنَّ عليها أن تكون ديموقراطيَّةً تُعطي حقوقًا متساويةً لجميع مواطنيها؛ أيْ أن تكون ـ كما اقترح عزمي بشارة ـ «دولةً لجميع مواطنيها» بكلِّ ما في هذه الكلمات من معنًى. وأمَّا تحقيقُ حقّ العودة للاجئين الفلسطينيِّين فهو متضمَّن في هذا الحلّ أيضًا، بوصف ذلك الحقّ خطوةً ضروريَّةً أُولى لمحو الظلم أو «الخطيئةِ الأصليَّة.»

ولكنْ على الرُّغم من مزايا هذا الحلّ الأخلاقيَّة فإنَّه يمكن أن يواجَهَ بأمرَيْن محدَّدَيْن:

أ ـ أنَّه يُشرِّع حصيلةَ المرحلة الأولى من الاستعمار الصهيونيّ، أو هو يعترف بـ «شرعيَّة الجنين» برغم كونه «ثمرةَ الخطيئة» كما يقول عزمي بشارة. إنَّ الإشكال هنا ليس في وجود اليهود في فلسطين في حدِّ ذاته، بوصفهم مواطنين متساوين في الحقوق أو بشرًا، بل في وجودهم القوميّ الذي هو حصيلةٌ مباشرةٌ للماضي الاستعماريّ، وإدامةٌ للظلم، وهو من ثم أرضٌ خصبةٌ لإطالة القمع والصراع. ففي البلدانِ التي اندمج فيها المستوطنون بالسكّان الأصليِّين ـ كما حصل في جنوبيّ أفريقيا وأميركا اللاتينيَّة، وكما حصل في دول الكاريبي بشكل أكثر لفتًا للأنظار ـ لم يكن هناك شرطٌ مسبَّق يقضي بقبولِ وتشريعِ «قوميَّة» المستوطنين، لأنَّ مثلَ هذا الشرط المسبَّق لا يمكن تبريرُه فورًا. وعاموس عوز، مثلاً، يَعْتبر حقَّ عودة الفلسطينيِّين انتهاكًا غيرَ مقبول لـ «حق اليهود في تقرير مصيرهم.»[٢] فكيف يمكن التوفيقُ بين مفهومٍ للقوميَّة كهذا، وهو مفهوم استعماريٌّ في أساسه، ومتطلِّباتِ إزالةِ الاستعمار ومن ثمَّ متطلِّبات التعايش المستقبليّ والسلام الدائم والتنمية؟

إذن، في ما يخصّ الصهيونيَّةَ تحديدًا، يُشرِّع هذا الاعترافُ جوهرًا استعماريّاً؛ علاوةً على أنَّه يؤدِّي إلى افتراض حلٍّ للسجال القديم حول ما إذا كان بمقدور اليهود أن يُسْتَوْعَبُوا أم أنَّ عليهم أن يُفْصَلوا عن الأغيار، مُؤْثرًا الاقتراحَ الأخير.

ب ـ أنَّه يَفْترض أنّ اليهود الإسرائيليِّين يُعَرِّفون أنفسَهم بأنَّهم أمَّة. وهذا الافتراض، ببساطة، لا أساسَ له يَدْعمه. فعلى المستوى الأول تُمْكن المحاججةُ بأنَّ ادِّعاء المتاخمة المشتركة بين الدين والأرض relgion-territory co-terminality يعاني خللاً نظريّاً وعمليّاً، وذلك لأنَّ «الدين لا يُمْكن أن يقدِّم أساسًا للهويَّة القوميَّة» بحسب ت.ك. أُومِنْ، وهو باحثٌ متميِّز في شؤون القوميَّة، «لأنَّ الشَّرْطيْن الأساسيَّيْن لتشكُّل الأمَّة ـ وهما تحديدًا الأرضُ المشتركة واللُّغة المشتركة ـ ليسا مشتركَيْن بين أتباع المجموعة الدِّينيَّة الواحدة...»[٣] وإلاَّ لكان من حقّ المسلمين الأندونيسيِّين والكاثوليك البرازيليِّين أن يدَّعوا حقَّهم في فلسطين مثل أيِّ شخص كان.

ولكنْ حتى لو نحَّيْنا هذه المسألةَ جانبًا فإنَّ عزمي بشارة نفسَه يُقرّ بأنَّ اليهود الإسرائيليِّين «لا يعترفون ـ وإنْ مجرَّد اعتراف ـ بقوميَّتهم الإسرائيليَّة نفسِها. إنَّهم لا يعترفون بالهويَّة القوميَّة

١ ـ Edward Said, “The One State Solution,” *New York Times Magazine*, January 10, 1999.
٢ ـ Amos Oz, “Let Palestinians Govern Palestinians Now,” *The New York Times*, January 6, 2001.
٣ ـ T.K. Oommen, *Citizenship & National Identity*, Ed. Oommen (Sage publications, 1997), p. 169.

تعايش من دون استعمار

[الإسرائيليَّة ـ اليهوديَّة] التي أنتجوها... إنَّهم لا يَعْترفون إلاَّ بالأمَّة اليهوديَّة. فبالنسبة إليهم ليس ثمَّة شيءٌ اسمُه' الإسرائيليَّةُ ‹القوميَّة الإسرائيليَّة›.»(١)

◆ ◆ ◆

لعلّ اقتراحًا أكثر أخلاقيَّةً هو أن نُمَفْهِمَ ‹أيْ نصوغ مفهومًا يمثِّل› **دولةً ديموقراطيَّةً علمانيَّةً** تُبنى في الوقت الذي تتواصل فيه عمليَّةُ إزالة الاستعمار المطلوبةُ وفاءً للمبادئ الأخلاقيَّة، بحيث تَنْشأ هويَّةٌ عابرةٌ للقوميَّات، أو ينشأ «خليطٌ للآفاق» حقيقيٌّ، كما يسمِّيه غادامر، يوحِّد يهودَ فلسطين والسكّانَ الأصليِّين، أي الفلسطينيِّين (بعد أن يعاد وَصْلُ أجزائهم الثلاثة أولاً ويعاد تجذيرُها في موطنهم التاريخيّ)، بما لا يَسْمح باستبعاد أيِّ فريق مسبَّقًا. ومن نافل القول إنَّ على مثل هذه الهويَّة الجديدة أن تتكيَّف مع متطلَّبات المنطقة بأسرها، ومع الحقوق العامَّة لمواطنيها جميعهم. وواضحٌ أنَّ هذه المسألة تحتاج إلى بحثٍ أشدّ تفصيلاً وهو ما يتجاوز حدودَ هذه المقالة.

لقد قال مناحيم بيغن ذات يوم:

«يا صديقي، احذرْ. إنِ اعترفتم بمفهوم' فلسطين' دمَّرْتُمْ حقَّكم في العيش في عين هاحورِشْ. فإذا كانت هذه فلسطينَ لا أرضَ إسرائيل، فأنتم محتلُّون لا حارثون للأرض، وأنتم غزاة. وإذا كانت هذه فلسطينَ، فإنَّها تنتمي إلى شعبٍ عاش هنا قبل أن تأتوا.»(٢)

ولكنْ، تلك كانت فلسطين حقّاً، وليس ثمَّة حائلٌ دون أن **تُعاد** تسميتُها فلسطينَ في المستقبل. ومع التسليم بأنَّ ذلك يتطلَّب عمليَّةً شاملةً من إزالة الاستعمار ومن التحوُّلات الجديَّة ـ وهذا لن يكون بالأمر السهل ـ فإنَّه ينبغي ألاَّ يُنظَرَ إليه بقلقٍ وخوف وكأنَّه «تهديدٌ وجوديٌّ».. إلاّ أن يكون المقصودُ تهديدًا لوجود **الفكرة الاستعماريَّة والممارسة الاستعماريَّة**.

ربَّما كان هذا هو الخيارَ الأخلاقيَّ الأوحدَ أمام الإسرائيليِّين ليتبنَّوْه، وهو أن يَعْترفوا بالولادة الدمويَّة لدولتهم على أنقاضِ ما كان فلسطين، وبسيرورة هذه الدولة عبر الزمن وحشًا ضاريًا استعماريّاً وكائنًا طفيليّاً يقتات من دمٍ وعرقٍ وعذابِ المجتمع العربيّ الفلسطينيّ المقطَّع الأوصالِ والمستأصَلِ الجذورِ والمهجَّر والمستعْبَد. فإذا اعترف الإسرائيليُّون بذلك فسينظرون إلى التحدِّي الذي يواجِهُ وجودَهم الاستعماريَّ لا بوصفه «تهديدًا وجوديّاً» **لهُم** وإنَّما بوصفه دعوةً ميمونةً ونبيلةً إلى تفكيك **الطبيعة الاستعماريَّة** لدولتهم، ودعوةً إلى أن يتمتَّع اليهودُ في فلسطين أخيرًا بحالةٍ سواءٍ حقيقيَّةٍ وبضمائر نقيَّةٍ وبحياةٍ أخلاقيَّةٍ وبسلامٍ على الأرض، فيصيروا مواطنين متساوين في دولة علمانيَّةٍ ديموقراطيَّة تكون أرضًا **واعدةً** حقّاً.

عمر بوغوثي

طالب دكتوراه فلسطيني في مادة الفلسفة في جامعة تل أبيب في فلسطين المحتلة. وهو أيضًا مدرِّب «فرقة الفنون الشعبية الفلسطينية.»

١ ـ Azmi Bishara, "The Legitimacy of Resistance: Options for Palestinian Survival," CPAP, Washington, December 1998, p. 5-11.

٢ ـ Menachem Begin, quoted in Noam Chomsky, Peace in the Middle East (Pantheon, 1974), p. 21.